هفـــوة

للكاتب الروسي الكبير أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ فيصل عبد الله

كانت « ناتالى » الشابة الحسناء تحدّث زوجها بحماس بعيد عودتها من (يالطة) عما شاهدته من المباهج والطرف فى زيارتها شبه جزيرة القرم ، وهما يتناولان الغداء سوية ... وكان زوجها ينصت لما ترويه منتبطاً مسروراً ، إلا أنه كان يقطع صمته بين حين وآخر ، سائلاً زوجه سؤالاً سخيفاً عن « دنيا التتر » وعن المعيشة فيها ، وما يقال عن غلاء أسبابها ، فكانت تجيبه أن هذا القول لا يخلو من الغلو والخيال أحياناً ، إذ أنها وزميلتها (يوليا بتروفنا) كانتا تشغلان غرفتين مترفتين مريحتين لقاء بضعة روبلات قد تبلغ العشرين فى اليوم ، إلا أن كل هذا يتوقف على تصرف الإنسان فى قضاء رغباته ، فمثلاً إن اصطحاب الإنسان جواداً ودليلاً عند صعوده الجبال ، لما يكلّف من المال الكثير ، وعلى ذكر الجبال تسرف « ناتالى » فى وصفها وإطراء مفاتنها ، ثم تحاول أن تصوّر لزوجها تلك الروعة التى تملك لبّ الإنسان وهو يسرّح الطرف فى تلك الجبال ...

— لكم هى شاهقة خلابة ... تصوّر أيها العزيز جبالاً شاهقات تكاد أن تنطح السماء إنها لأعلى كثيراً من أبراج الكنائس بآلاف من المرات ... لكم هى فتانة إذ يتوّج الثلج الأبيض قممها ، وتحيط بسفوحها أشجار الصنوبر التى تحاول أن تنافس الجبال طولاً وامتداداً فى الفضاء ... كما أن الأحجار البرّاقة المصقولة والحصى الناعمة الدقيقة مبعثرة على سفوحها ... منثورة حواليها ... آه ... لكم أود لو أشبع رغبة نفسى التى تلجّ بى دائماً إلى تذكّر تلك المشاهد الشعرية الفاتنة ، والتفكير فيها

فيقول لها زوجها : وهؤلاء التتر ... إنك لم تحدثينى عنهم شيئاً ... إن لهم فى حياتهم لفضائح وفظائع مزريات ، أجل ، فلقد قرأت هكذا عنهم فى الصحف عند غيابك ... فهلا يا (ناتالى) شهدت منها شيئاً ؟ ...

فيشحب وجهها ... وتعلوه سحابة نفور واشمئزاز ... ثم تهز كتفها فى سخرية وهى تقول :

— إنهم ليسوا إلا تتراً بسطاء ، ليس فيهم مما يجلب البصر ويسترعى الاهتمام ، أجل ، إننى أعرف عنهم هذا ، وإن لم أدن منهم يوماً ... إنك لتعلم أيها العزيز أننى لم أنس كرهى بعد لهؤلاء التتر والشركس واليونان .

لقد لوّح لى بعض هؤلاء من الأدلاء ، ولكننى لم أعر تلويحهم لى بعض التفات ، ولم أحفل بهم .

— ولكن المشاع أن كلا منهم زير نساء ، أو (دون جوان) .

— قد يكون هذا ... إنما لا تنس يا عزيزى أن هنالك من لا أخلاق لهن . وكأنما كرت بها الذكرى إلى أمر مخيز أو حادث مزرٍ ... فشحب

وجهها بغتة وصمتت فجأة ، ثم عادت بعد صمت تقول :

— فاسيشكا ، إن العالم لا يخلو ممن فقدن الحياء والكرامة ، ووطئن الشرف بأقدام الطيش والرعونة يا لله ، ما أشنع فضائحهن وأزرى مخازيهن ... إنما العجب أيها العزيز أنهن سيدات يُنسبن إلى أرقى الطبقات وأرفع الأسر ، سيدات تعرفهن المجتمعات خير معرفة ، وفيهن لآلئ تضيء ، وكواكب تبرق وتتوهج ... يا له من أمر فظيع ! لم أكن لأتصوره من قبل . . . خذ يا عزيزى مثالاً لهن ، تصور سيدة تتناسى من هى ومن تكون ، وتتعامى عن شرفها وكرامتها ! ... آه يا فاسيشكا ، لكم أرغب عن التحدث عن أمثال هذه الفظائع ، ولكن مع هذا ... تصور يا عزيزى سيدة رفيعة الحسب ، سامية المنزلة ، كزميلتى فى سفرتى « يوليا بتروفنا » إن لها — كما تعلم — لبعلاً كريماً يمتهن الطب وطفلين جميلين ، سيدة تعرفها المجتمعات الراقية والمحافل الرفيعة ، وتعلم أنها طالما أبدت نفسها كقديسة طاهرة ... فإذا بها فجأة ... ماذا ؟ ! ... أيمكن أن يصدق هذا ؟ آه . يا عزيزى ... إن ما أخبرك به لهو سر غير قمين بك أن تذيعه أو تبوح به لأحد . أتقسم لى على هذا ؟ ...

— طبعاً ... طبعاً ... ولكن ما الذى جرى ؟

— إننى لا أملك فى هذا غير الثقة بك ، ثم طرحت شوكتها جانباً من الصحاف ، وقالت هامسة :

« لقد كان يوماً مشرقاً دافئاً ، امتطت فيه « يوليا بتروفنا » ودليل لها جواداً يقصدان الجبال ، أما أنا فقد كنت على مقربة منهما فإذا بها فجأة ، تضع يدها على صدرها ، ويبدو عليها الإغماء والإعياء ... إنه أمر فظيع ، لقد أحاط دليلها خصرها بذراعيه ، ولولا ذلك لصرعت أرضاً ، فأسرعت إليها ودليلى وسألتها فى جزع وفزع شديدين عما حل بها ... فقالت ...

— أكاد أختنق ... إننى أحتضر ... فعرضت عليها العودة من حيث جئنا ، فأبت ذلك محتجة بعدم قدرتها على العودة وبعجزها عن المسير ، وبأنها قد تفقد الحياة إن خطت خطوة واحدة ... ثم رجتنا وألحت علينا — أنا ودليلى سليمان — أن نعود إلى المدينة لنحضر لها ما اعتادت تناوله من الأدوية »

فقاطعها زوجها :

— مهلاً ... إنك لنهرفين ... لقد قلت منذ لحظات إنك لم تريهم إلا عن بعد ، ولكنك الآن تذكرين أحدهم ، ذلك الذى تدعينه سليمان ... دليلك ...

— ألا تترك سوء ظنك جانباً ؟ إنك لا تعدم سبباً للوم ... إننى لا أطيق هذا .. إنه أمر فظيع لا يصدر إلا عن أحمق غيور

— لست بسيء الظن بك فأبحث عما يمهد لى لومك وعذلك ، ولكنك تكذبيننى فيما تقولين ، فإذا كنت قد اصطحبت أحد هؤلاء التتر يوماً فى ارتيادك الجبال ، فلِمَ تنكرين هذا أولاً ثم تعترفين به أخيراً ؟

— حقاً إنه لأمر فظيع ... أو تغار من سليمان ؟! أم حسبت أنه من المستطاع أن أرتاد الجبال دون ما دليل يدانى على أقوم السبل وأبهج المسالك ... لكم أود لو أراك تقصد الجبال وحدك دون ما دليل أو قائد ، إذا كنت يا عزيزى تجهل أموراً فلا ترجم بالغيب فتتحدث عنها كأن عندك الخبر اليقين ... إن الإنسان هناك ... ليس بإمكانه أن يجول قليلاً أو طويلاً .. دون ما دليل يشير إليه بالمسالك السهلة المأمونة ...

— يبدو لى ذلك !

— أرجو ألا تفرط فى سخريتك وتهكمك . احتفظ بهما لنفسك ... إننى لست (يوليا) ... إننى وإن لم أسايرها فى مسلكها وأخذ حذوها من قبل فأزعم أننى قديسة طاهرة الذيل ... مصونة ... فلن أجاريها أخيراً ولم أجارها من قبل ... إذ أنسى أو أتنامى نفسى وكرامتى ... إننى لم أسمح قط لسليمان أن يتعدى ما وضعت له ورسمت ... لقد كان « محمد قول » يجالس (يوليا) فى غرفتها النهار كله . أما أنا فقد كنت أصرخ بسليمان إذا ما أزفت الساعة الحادية عشر مساء :

— هيه سليمان ... هيا أيها الأحمق اغرب عن وجهى سريعاً ... فكان يذهب مطيعاً ما أقول . وإذا ما تذمر من قلة الأجر ـ مثلاً ـ كنت أصرخ به أن يسكت فيسكت ، ثم ينظر إلى بعينيه السوداوين ومحياه الفترى الوسيم الوديع مستعطفاً ذليلاً ... لقد كان بسيطاً ساذجاً ... يالله من تترى ظريف !

فيتمتم زوجها قائلاً : أستطيع أن أتصور هذا!

— ما هذا يا فاسيشكا ... إنها لفظاعة منك . إننى أفهم ما يدور بخلدك ويطوف بذهنك ، إنما أنت تخطئ فى ظنونك ... إننى أؤكد لك أننى لم أسمح له يوماً بأن يجتاز حدوده الموضوعة ، فمثلاً إذا ما قصدنا الجبال ذات يوم أو إذا ما عن لنا أن نمتع النفس برؤية شلال (أوشالنسو) كنت أصرخ به :

— سليمان ، هيا ... هيا امتطى جوادى خلفى أسامع أنت ما أقول ... فكان المسكين يجيبنى إلى ذلك بخفة ورشاقة ... لقد كنت أقول له حتى فى أقرب المواقف التى كانت تمر بنا إلى ما نقرأ فى القصص والروايات : لا تنس يا سليمان أنك لست إلا تتربا بسيطاً أما أنا فزوج مشير ... ها . ها

وضحكت ساخرة ، ثم قالت : إننى لا أعرف خيراً من المزاح البسيط يقتل الملل الذى يتخلل الحياة الزوجية ، أما أن يفهم المرء ذلك على أنه أمر جدى فذلك ما لا أفهمه وإنها لفظاعة ... ولنعد ليوليا ، لقد استبدت بها الغيرة يوماً وسبتها ... آه لكم هو أمر مخز ذلك الذى أقدمت عليه . أقول لقد سبتها الغيرة يوماً كانت فيه غائبة عن البيت ، فجاء دليلها (محمد قول) فدعوته إلى غرفتى لكى ينتظر (يوليا) فيها حتى تجىء ، فتحدثنا فى أمور شتى وتناولنا من الحديث ما يلذ ويطيب ، وإنهم كما لا أظنك تجهله لقوم ظرفاء ، فأنسانى ظرفه أشباح المساء المدبرة ، حتى عادت (يوليا) فرأت دليلها عندى فى غرفتى فملكها الغيظ وشاع فيها الحقد الذميم فانهالت علينا — أنا ودليلها محمد قول — بالسباب المقذع والشتم الفظيع ... وأى شتم هو .. ثم تمادت فى غيها وغيظها فاستعانت باللكم والصفع تنهال بها علينا حتى شفت غليلها وابتردت من حمى غيرتها أو كادت .. إنه لأمر فظيع أيمكن أن تتصور هذا يا فاسيسكا ؟

أما فاسيشكا فقد قطب جبينه وشمل محياه العبوس ... ثم أخذ يقطع الغرفة جيئة وروحاً يفكر ويفكر ... ثم قال وقد اتضحت على ثغره بسمة سخرية واحتقار :

— يا لها من سفرة سعيدة وأيام ناعمة هنيئة قضيتها هناك ...

— إنه لأمر فظيع ... إنها لحماقة منك لا تغتفر .. إننى لأدرك ما تذهب إليه .. فما كنت يوماً بخال من هواجسك وظنونك ، إن أفكارك السخيفة الآثمة لم تزل بعد تستبد بلبك وتملأ ذهنك ...

كلا . . . لستُ بمحدثتك عن شىء بعد اليوم

(يتبع) فيصل عبد الله